الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية

إعداد:
د. محمد عويس عبدالرحيم محمود
مدرس الدراسات الإسلامية المنتدب
بكلية الآداب بالوادي الجديد
جامعة أسيوط – مصر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] والصلاة والسلام على نبيه محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، والقائل في حديثه: "الراحمون يرحمهم الرحمن ﷻ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"(١)

انطلاقًا من هذه النصوص الشرعية وغيرها رغبت في كتابة هذا البحث، وجعلته بعنوان: الرحمة(٢) بالعجماوات(٣) في السنة النبوية.

(١) رواه أبو داود في سننه/كتاب الأدب/باب: في الرحمة./حديث رقم (٤٩٤١) والترمذي في سننه/كتاب: البر والصلة عن رسول الله ﷺ باب رحمة المسلمين/حديث رقم (١٩٢٤) وقال الترمذي: (حسن صحيح). سنن الترمذي/تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون/ط. دار إحياء التراث العربي.

(٢) الرحمة لغةً: الرقة والتعطف والمغفرة. (ابن منظور/لسان العرب/مادة (رحم)). واصطلاحًا: إرادة إيصال الخير. (الجرجاني (علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ت ٨٦٦هـ)/ التعريفات/ص١١٦/ط. الأولى دار الكتب العلمية. بيروت- لبنان ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م)

(٣) العجماوات: كل كائن حي له شعور لا يستطيع التعبير عنه، ويُقصد به في هذا البحث كل ما عدا الإنسان من حيوانات وطيور وحشرات. جاء في لسان العرب: الأعجم: الأخرس، والعجماء والمستعجم كل بهيمة. وفي الحديث: «العجماء جرحها جُبار» أي لا دية فيه ولا قَودَ؛ أراد بالعجماء البهيمة، وسُميت عجماء؛ لأنها لا تتكلم. (ابن منظور/لسان العرب/مادة (عجم)) والحديث رواه البخاري في صحيحه/كتاب: الزكاة/باب في الركاز الخمس/حديث رقم (١٤٩٩)، ومسلم في صحيحه/كتاب: الحدود/باب: جرح العجماء جبار/حديث رقم (١٧١٠) رواه أبو داود في سننه/كتاب: الديات/باب: العجماء والعدن والبئر جبار/حديث رقم (٤٥٩٣). قال الألباني: صحيح. والترمذي في سننه/كتاب: أبواب الزكاة/باب: ما جاء أن العجماء جرحها جبار/حديث رقم (٦٤٢). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.)

أهداف البحث:

أقدمت على كتابة هذا الموضوع؛ تحقيقًا للأهداف التالية:

١. بيان شمولية الرحمة النبوية، فقد أرسل الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ رحمة لجميع المخلوقات.

٢. إبراز المقاصد السامية للرحمة النبوية.

٣. تقرير أسبقية السنة النبوية في الرحمة بالحيوان والمحافظة على البيئة.

٤. التفريق بين الحكمة في الاستفادة من الحيوانات وبين الرفق بها والرحمة.

٥. التعرف على ماهية الرحمة النبوية بالعجماوات، وبيان أنها تتسم بالتوازن؛ تحقيقًا لمصلحة الإنسان والعجماوات.

٦. رصد بعض صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية وكشف ما فيها من حكمة تتعلق بالأمر أو النهي وغيرها من الأساليب التعبيرية.

إشكالية البحث:

يحاول البحث الإجابة عن التساؤلات التالية:

- ما ماهية الرحمة النبوية بالعجماوات ؟
- وما حكمتها ؟
- وما أبرز صورها ودلائلها في السنة النبوية؟
- وبم تتسم رحمته ﷺ بهذه المخلوقات الضعيفة ؟
- وكيف كان يطبقها رسول الله ﷺ عمليًا في حياته ؟

الدراسات السابقة:

ولست أزعم أنَّ هذا العمل فريداً لم يأتِ أحد بمثله، بل قد سبقني إليه علماء أجلاء ورواد مشهورون، إلا أنَّ أغلب الدراسات قد تناولت الرحمة النبوية بشكل مجمل، ولم يشبعوا البحث في جانب رحمته ﷺ بالعجماوات إشباعًا يُجلي هذا الجانب من الرحمة النبوية، ويربط بين فحوى النص النبوي ودلالته العملية.

ومهما يكن من أمر فإنَّ من أهم الدراسات التي حاول أصحابها بيان رحمة النبي ﷺ بالحيوان ما يلي:

١. معالم الرحمة في السنة النبوية بالرفق بالحيوان، إعداد الدكتور سليمان بن عبدالله السيف، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ المنعقد في الرياض ٢٣-٢٥ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢-٤ أكتوبر ٢٠١٠م.

٢. معالم الرحمة بالحيوان في شريعة نبي الرحمة ﷺ إعداد الدكتور توفيق بن أحمد الغلبزوري، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ السابق ذكره.

٣. معالم الرحمة بالحيوان، إعداد الدكتور عبدالغفور عبدالحق حسين، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة - السابق ذكره.

٤. معالم الرحمة بالحيوان، إعداد الدكتور عبدالله بن محمد الرشيد، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة السابق ذكره.

٥. ومن المقالات القصيرة ما كتبه الدكتور راغب السرجاني في موقع قصة الإسلام الإلكتروني: رسول الله وحقوق الحيوان، والإسلام وحقوق الحيوان.

وقد تفضل أحد المحكمين الفضلاء -جزاه الله خيرًا- بإرشادي إلى وجود مقالات علمية أخرى منشورة في بعض المجلات العلمية في ذات الموضوع؛ منها:

- مقالات لعثمان منشاوي، نشرها في سلسلة حلقات في مجلة الأزهر، أعداد (ربيع الأول وربيع الآخر ورجب وشعبان سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) بعنوان: الرحمة بالحيوان.
- مقالة لمحمد حافظ سليمان، نشرها في نفس المجلة بعنوان: رحمة الإسلام بالطير والحيوان.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على منهجين: أولهما: المنهج الاستقرائي في تتبع صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية، وثانيهما: المنهج التحليلي؛ الذي يقوم على تحليل النصوص، والاستنباط منها، واستخراج فوائدها بما يحقق غايات البحث.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة: أهمية الموضوع، وأهدافه والمنهج والخطة.

التمهيد: حديث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ.

المبحث الأول: حكمة الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية.

المبحث الثاني: جملة من صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: رعاية العجماوات والإحسان إليها.

المطلب الثاني: النهي عن إيذاء العجماوات والقسوة عليها.

المطلب الثالث: مواقف عملية للرحمة بالعجماوات في السنة النبوية.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث وتوصياته.

ثبت للمصادر والمراجع.

التمهيد
حديث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ

من المفاهيم الإسلامية الأصيلة التي زخرت بها آيات القرآن الكريم الرحمة، فقد ورد ذكره فيما يقرب من (٢٦٨) ثمانية وستين ومائتي موضع، أكثر المواضع بصيغة الاسم، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة:٢-٣] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وورد بصيغة الفعل في أربعة عشر موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران].

وجاء في معاجم اللغة أنَّ لفظ (رحم) يدل على الرقة والعطف والرأفة. يُقال: رحمه يرحمه إذا رقَّ له، وتعطف عليه. والرُّحم والمرحمة والرحمة بمعنى واحد. والرَّحِم: علاقة القرابة. (١)

وقد تحدث القرآن الكريم عن رحمة النبي ﷺ في غير موضع، منها قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

(١) راجع في ذلك: ابن منظور/لسان العرب/مادة (رحم)، والخليل بن أحمد الفراهيدي/معجم العين/مادة (رحم)، والمعجم الوسيط/مادة (رحم)/ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقد أسهب العلماء والمفكرون في الحديث عن رحمة النبي ﷺ وتناولوها من جميع جوانبها، في كل أحواله سلمًا وحربًا وحضرًا وسفرًا ودعوة.

ومن أروع ما قيل في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧] ما قاله الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: "اشتملت هاته الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ ومدح مرسله ﷻ، ومدح رسالته بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

واعلم أن انتصاب "رحمة" على أنه حال من ضمير المخاطب يجعله وصفًا من أوصافه، فإذا انضم إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصفة صار من قصر الموصوف على الصفة. ففيه إيماء لطيف إلى أن الرسول اتحد بالرحمة وانحصر وجوده فيها، ومن المعلوم أن عنوان الرسُولية ملازم له في سائر أصوله، فصار وجوده رحمة وسائر أكوانه رحمة وَوُقُوعُ الْوَصْفِ مَصْدَرًا يُفِيدُ الْمُبَالَغَةَ فِي هَذَا الاتِّحَادِ بِحَيْثُ تَكُونُ الرَّحْمَةُ صِفَةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ إِرْسَالِهِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْمَعْنَى مَا أَشَارَ إِلَى شَرْحِهِ النَّبِيءُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».[1]

وقد خصَّ الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ بالرحمة في هذه الآية بل وفي القرآن كله؛ لذا يمكننا القول بأنَّ الرحمة النبوية قرب واصطفاء. فقد ذكر القاضي عياض في كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) قول أبي بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي[2]، "زين الله محمدًا ﷺ بزينة الرحمة،

(١) محمد الطاهر بن عاشور/تفسير التحرير والتنوير/جـ١٧/١٦٥ - ١٦٦/ط. دار سحنون- تونس.
(٢) ترجم له محقق الكتاب دون أن يذكر مصدره بقوله: (هو أبو بكر بن طاهر بن مفوّز المعافري الشاطبي، عالم ورع، مات قرب ستة ٣٣٠ هـ) وبالبحث في كتب التراجم تبين لي أنه =

فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة، وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته، فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب"[1].

وقد فسَّر الشيخ ابن عاشور اصطفاء الله ﷻ لرسوله ﷺ لخلق الرحمة، بقوله: "محمد ﷺ فُطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة؛ لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة؛ حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائمًا رغبته وخلقه".[2]

ولم تقتصر رحمته ﷺ على الإنسان دون غيره من سائر المخلوقات بل تعدته إلى ألوان أخرى يأتي في مقدمتها "الحيوان"، يقول الشيخ ابن عاشور مفصلًا ذلك: "وإن أُريد بـ (العالمين) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به...

وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما يُنتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك. ولذلك كُره صيد اللهو، وحُرِّم تعذيب الحيوان لغير أكله، وعدَّ فقهاؤنا سباق الخيل رخصة للحاجة في الغزو ونحوه. ورغبت الشريعة في رحمة الحيوان... أما المؤذي والمضرّ من الحيوان فقد أُذن في قتله وطرده؛ لترجيح رحمة الناس على رحمة البهائم".[3]

= أَبُو الحَسَنِ طَاهِرُ بنُ مُفَوِّز بن أَحْمَدَ بن مُفَوِّز المَعَافِرِيُّ الشَّاطِبِيُّ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، النَّاقِدُ، المُجَوِّدُ، كَانَ فَهِمًا ذَكِيًّا، إِمَامًا، مِنْ أَوعِيَةِ العِلْمِ، وَفُرْسَانَ الحَدِيْثِ، وَأَهْلِ الإِتْقَانِ وَالتَّحْرِيْرِ، مَعَ الفَضْلِ وَالوَرَعِ، وَالتَّقْوَى وَالوَقَارِ وَالسَّمتِ. مَوْلِدُهُ: فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ، وَمَاتَ: فِي رَابِعِ شَعْبَانَ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَةٍ. (ينظر: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)/سير أعلام النبلاء/تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط/ج ١٩/٨٨/ط. الثالثة/مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)

(١) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤هـ)/الشفا بتعريف حقوق المصطفى/جـ١/٥٦/ط. الثانية/دار الفيحاء- عمان سنة ١٤٠٧هـ

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور/تفسير التحرير والتنوير/جـ١٧/١٦٧

(٣) ابن عاشور/تفسير التحرير والتنوير/جـ١٧/١٧٠

وخلاصة القول: إنَّ الرحمة خلق فطري جُبل عليه رسول الله ﷺ؛ تأليفًا للقلوب، وترسيخًا للقيم الإسلامية السمحة، ومن ثمَّ صارت الرحمة هديًا للنبي وديدنًا له في جميع أحواله، قال ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ"(١).

(١) حديث صحيح، رواه الحاكم (أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري (ت٤٠٥هـ)). في المستدرك على الصحيحين/تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا/جـ١/٩١/كتاب الإيمان/حديث رقم (١٠٠)/ط. الأولى/دار الكتب العلمية- بيروت/١٤١١هـ- ١٩٩٠ وقال الحاكم:(هذا حديث صحيح)على شرطهما، ورواه الدارمي في سننه/باب: كيف كان أول شأن النبي ﷺ/حديث رقم (١٥)/ج١/١٦٦، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه/باب: ما أعطى الله ﷻ محمدًا/حديث رقم (٣١٧٨٢) ج ٦/٣٢٥، ورواه البيهقي في شعب الإيمان/باب: فصل في شرف أصله وطهارة مولده ﷺ/حديث رقم (١٣٣٩)/ج ٢/٥٢٩، ورواه الآجري في الشريعة/باب: ذكر ما استنقذ الله -عزَّ وجلَّ- الخلق بالنبي ﷺ وجعله رحمة للعالمين/حديث رقم (١٠٠٠)/ج ٣/١٤٧٧

المبحث الأول
حكمة الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له الكون بكل ما فيه لمنفعته، ومن المخلوقات التي خلقها الله وسخرها لنفع الإنسان العجماوات والطير، وذلك لحكمة إلهية عرفها من عرف وجهلها من جهل.

وقد كرَّم الله في كتابه العزيز الحيوان؛ فسميت سور من القرآن بأسماء الحيوانات نحو: سورة البقرة، والأنعام، والنحل، والعنكبوت، والفيل. ودعا ﷻ إلى ضرورة تربية الحيوانات محافظة على الثروة الحيوانية؛ لنفع الإنسان، قال تعالى في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه:٥٣-٥٤].

فالآية الكريمة تدعو إلى تربية الحيوان والمحافظة عليه، وتبدو الدقة في التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾ في توجيه الإنسان لوسائل من شأنها أن تعمل على تنمية الثروة الحيوانية في الكون، فالرعي فيه تغذية الحيوان، ورعايته أثناء الرعي، والاهتمام بانتقاء أفضل المراعي، وتعهد الحيوان بالسقي والتطبيب، وغير ذلك مما يستلزمه المحافظة على الثروة الحيوانية؛ خدمة لبني البشر.

كما بيَّن ﷻ أصناف الحيوانات التي تحقق منفعة الإنسان في حياته،

فقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل:٥-٨].

مما سبق ندرك أنَّ الحيوان مخلوق لحكمة كالإنسان تمامًا، سخره الله لنفعه - وهذا الأمر يستوجب طاعة الله وحمده وشكره، كما أنَّ الله ﷻ يلفت انتباه الناس في كتابه العزيز إلى حقيقة مهمة، وهي أن العجماوات من الحيوانات والطير والحشرات أمم كأمم البشر، لها خصائصها وسماتها، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

وما دام الأمر على هذا النحو فإننا ندرك -بما لا يدع مجالًا للشك- أنَّ الإسلام لا ينظر إلى العجماوات نظرة دونية. إنما يعلي من قيمتها ويرفع قدرها.[1] فهي أمم خلقت لتسبيح الله وعبادته، وجُبلت طاعة لله ﷻ على

(١) قد يقول بعض الباحثين: إن في القرآن الكريم بعض الآيات تحمل تحقيرًا لبعض الحيوانات، وهذا دليل على أن نظرة الإسلام للحيوان نظرة دونية، ويمكن الرد على قولهم هذا بأن التحقير الوارد في بعض الآيات إنما هو تحقير ظاهري فقط، وأنَّ هذا الذم الوارد ليس ذمًا للحيوانات إنما هو ذم لمن يعيش أدوار الحيوانات ولم يعش دوره الإنساني. ومن ذلك قوله ﷻ في ذم هؤلاء البشر الذين تخلوا عن نعمة الهداية التي سيغها الله عليهم: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِۖ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦] قال ابن عطية في تفسيره: وقوله: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ) قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه يلهث كما يلهث الكلب فشبه به صورة وهيئة، وقال الجمهور إنما شبه به في أنه كان ضالاً قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيها فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه، وتحرير المعنى فالشيء الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسن دخول الكاف على «مثل»، واللهث: تنفس بسرعة وتحرك أعضاء الفم معه وامتداد اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس ضبح، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أن معنى إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ أي تطرده وحكاه عن مجاهد وابن عباس. وقوله: (ذلك مَثَلُ الْقَوْمِ) أي: هذا المثل يا محمد مثل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة ثم جئتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك. فمثلهم كمثل الكلب (ينظر: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)/المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد/ط. الأولى/دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٢ هـ) وكذا ذمه ﷻ لليهود الذين لم يعملوا بما جاء في كتبهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة].

تحقيق منفعة دنيوية للإنسان، وحفظ التوازن الكوني؛ ومن ثمَّ وجبت الرحمة بها ورعايتها والرفق بها.

ومن الأمور التي تستحق التأمل ذلك المنهج الذي وضعه الإسلام لبيان العلاقة الوطيدة بين الإنسان والعجماوات، وقد بُني هذا المنهج على أساسين ثابتين هما:

الأساس الأول: أنَّ العجماوات مُسَخَّرة -على نحو فطري- لمنفعة الإنسان وخدمته في الحياة الدنيا؛ دعمًا لدوره في عمارة الكون.

والأساس الثاني: هو رسم حدود العلاقة بين الإنسان والعجماوات، وتوضيح كيفية التعامل معها.

وقد بيَّن الإسلام في سبيل ذلك ونبّه إلى أمرين:

أولهما: عدم المغالاة في تقدير العجماوات ورفعها فوق قدرها الطبيعي، بأن يصير الإنسان خادمًا ذليلًا لهذه العجماوات.

وثانيهما: إيذاء العجماوات وتعذيبها، وتحميلها فوق طاقتها.

هذا وقد خطَّ الإسلام بين هذين الطريقين منهجًا وسطًا، أساسه الرحمة، تبرز معالمه في أنَّه:

١. يوضح للإنسان المسلم أنَّ العجماوات مُسَخَّرة له فضلًا من الله؛ لتعينه على مجابهة مصاعب الحياة، ولتسهيل مهمته فيها المتمثلة في عمارة الأرض.

٢. يبين للبشر أنَّ رحمة العجماوات والرفق بها عبادة وقربى لله ﷻ.

٣. يرشد هؤلاء البشر أنَّ القسوة على العجماوات وترويعها وإجهادها في الأعمال الشاقة، وتحميلها ما لا تطيق أمور تتنافى مع الرحمة العامة التي تتصادم وتتعارض مع اكتمال الإيمان، قال رسول الله ﷺ:

"لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تَرَاحَمُوا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا رَحِيمٌ. قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةِ أَحَدِكُمْ وَلَكِنْ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ رَحْمَةُ الْعَامَّةِ»"[1] فهي الرحمة بالعامة من البشر وجميع المخلوقات.

ومن هنا كانت السيرة النبوية مثالاً يُحتذى في الرحمة بالعجماوات، ففيها من الجوانب التطبيقية والقولية ما تقف أمامه جميع المنظمات الحقوقية الحديثة الراعية لحقوق الحيوان[2] عاجزة أمام الإعجاز النبوي ولا غرو في ذلك، فالرسول ﷺ أُرسل رحمة لجميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

على كلٍّ يمكننا تلمس حكمة الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية فيما يلي:

١. أنَّ الرسول ﷺ مثل أعلى وقدوة، ومعلم مؤتمن، وخلق الرحمة متأصل في سمته وشخصيته، ورحمته ﷺ تتسع لتشمل كافة المخلوقات، ونتيجة لالتصاق العجماوات بالبشر التصاقًا كاملا في جميع جوانب الحياة برزت رحمة النبي ﷺ بهذه العجماوات بشكل ملحوظ، وأظن أنَّ ذلك تطبيق عملي لخلق الرحمة بالعجماوات المتأصل في شخصية النبي ﷺ هدفه نشر جانب من جوانب الدعوة الإسلامية لجميع طوائف البشر حتى قيام الساعة. كما أنَّ الرحمة بالعجماوات

(١) حديث صحيح رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو. كتاب البر والصلة/حديث رقم (٧٣١٠) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) تأسست في إنجلترا عام ١٨٢٤م أول جمعية للرفق بالحيوان، ثم انتشر هذا التقليد بعد ذلك في كثير من أقطار الأرض، فكانت هنا وهناك جمعيات تهدف إلى الرفق بالحيوان عند المصاحبة، والإحسان إليه في المعاملة، والتلطف في السلوك. غير أن هذه الجمعيات جميعًا إنما تقوم على أسس أخلاقية صرفة، وقواعد إنسانية عامة، ليس لها أساس من القواعد التشريعية، أو القوانين الملزمة، وليس لها خلفية فقهية تنظم مسائلها، وتوضح حدودها المتعلقة بحفظ حقوق الحيوان المتعاون مع الإنسان في هذه الحياة، ومن هنا بقيت هذه الجمعيات ذات صفة طوعية اختيارية، وهي لذلك لا ترتب ثوابًا لممتثل ولا توجب عقابًا على مخالف. (د. راغب السرجاني/مقال طويل عن الحيوان بتاريخ ٢٠٠٦/٥/١م على موقع قصة الإسلام)

تُشكل بُعدًا آخر لفطنة الرسول ﷺ التي فطره الله عليها، وهي من عوامل نجاح الدعوة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. ففتح الله بهذه الرحمة أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا للإيمان بالرسالة؛ إذ لم تعهد البشرية رحمة بالعجماوات تباري رحمة النبي ﷺ بها.

٢. وثمة أمر آخر يُفسر لنا حكمة الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية يتمثل في إحداث التوازن الكوني، فالرحمة بالعجماوات تقتضي المحافظة على العجماوات سليمة، وآمنة، وقوية، وهادئة، ومنتجة. وهذه الآثار وغيرها تحفظ التوازن البيئي في الكون، لا سيما أن العجماوات عنصر مهم يخدم الإنسان في عمارة الكون.

ونختتم هذا المبحث بالتنبيه على أنَّ:

الرحمة بالعجماوات رحمة وسطية تتوسط بين الإجلال والتقديس من جانب، والعنف والتعذيب والقهر والإذلال من جانب آخر. فالمتأمل لصنوف البشر يرى أنهم يتوزعون بين فريقين: فريق يبالغ في الاحتفاء بالعجماوات والإعلاء من منزلتها؛ حتى يصبح الإنسان خادمًا مطيعًا لها، وفي بعض الأحيان عبدًا لها. وفريق آخر لا يكترث بها، ولا يرعى حقوقها ويبالغ في إذلالها. ومن ثمَّ جاءت الرحمة النبوية بالعجماوات لترسم طريقًا وسطًا بين هذين الطريقين رحمة بالإنسان والحيوان، وحفظًا للتوازن الكوني، دون تعظيم أو تحقير لهذه المخلوقات.

المبحث الثاني
جملة من صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية

تزخر السنة النبوية بتوجيهات غزيرة وعظيمة، يتجلى من خلالها تأصيل خلق الرحمة بالعجماوات من الحيوان والطير. وقد تنوعت صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية ما بين الأمر بالرفق بهذه العجماوات والإحسان إليها، وبين النهي عن تعذيبها وإيذائها والقسوة عليها، وبين المواقف التطبيقية العملية في سيرته ﷺ التي تجلت فيها عمليًا رحمته بالعجماوات، وهذا كله رحمة بهذا المخلوق الحي الضعيف وترسيخًا لهذا الخُلُق العظيم الذي عليه مدار الشريعة الإسلامية في سائر أبوابها، قرر الشيخ ابن القيم رحمه الله أنَّ الشريعة الإسلامية رحمة كلها فقال: "إِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنْ الْعَدْلِ إِلَى الْجَوْرِ، وَعَنْ الرَّحْمَةِ إِلَى ضِدِّهَا، وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إِلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنْ الْحِكْمَةِ إِلَى الْبَعْثِ؛ فَلَيْسَتْ مِنْ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ؛ فَالشَّرِيعَةُ عَدْلُ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتُهُ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَظِلُّهُ فِي أَرْضِهِ، وَحِكْمَتُهُ الدَّالَّةُ عَلَيْهِ وَعَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ ﷺ أَتَمَّ دَلَالَةٍ وَأَصْدَقَهَا"(١)

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».(٢)

(١) ابن القيم: إعلام الموقعين عن رب العالمين/تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد/جـ٣/١١/ط. دار الفكر- بيروت.

(٢) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد، رواه البخاري في كتاب التوحيد/باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]/حديث رقم (٧٤٤٨)، ومسلم في صحيحه/كتاب الجنائز/باب: البكاء على الميت/حديث رقم (٩٢٣).

إن استقراء صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية أمر يطول، ولا يمكن الإحاطة بجميع مظاهر تلك الرحمة وصورها في هذه العُجالة، ولكنني سأعرض لهذه الصور من خلال ثلاثة مطالب رئيسة، وسأكتفي بمثال أو مثالين من السنة النبوية للتدليل على رحمته ﷺ بالعجماوات.

المطلب الأول
رعاية العجماوات والإحسان إليها

الإحسان من الألفاظ التي كثُر ورودها في القرآن الكريم والحديث النبوي وهي ذات معنيين.

أولهما: الإتقان وإحكام التصرف من جهة الإصلاح والنماء؛ للوصول بها إلى الغاية التي خُلقت من أجلها، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».(١)

وثانيهما: الإشفاق والرحمة والرفق، والحماية والرعاية، والحب والود، واجتناب القسوة والعنف؛ كما في قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنْ النَّارِ»(٢)، وقوله ﷺ حاثًا على الرفق: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأمرِ كُلِّه».(٣)(٤)

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب: الصيد والذبائح/باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة/حديث رقم (١٩٥٥).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه/كتاب الأدب/باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته/حديث رقم (٥٩٩٥)، ورواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/باب: فضل الإحسان إلى النبات/حديث رقم (٢٦٢٩).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه/كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم/باب: إذا عرَّض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ حديث رقم (٦٩٢٧). ورواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/باب: فضل الرفق/حديث رقم (٢٥٩٣).

(٤) د. توفيق بن أحمد الغلبزوري/معالم الرحمة بالحيوان في شريعة نبي الرحمة ﷺ، بحث منشور=

وقد زخرت السنة النبوية بأحاديث الرحمة والرفق بالحيوان بما يتعذر معه الاستقصاء والإحصاء والاستيعاب على وجه الدقة، وفيما يلي بعض النماذج:

١. الأمر بالرفق في معاملة العجماوات:

الرفق هو جوهر الإسلام وعليه مدار الدين كله، روى مسلم في صحيحه عن جرير عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ».(١)

ومن النصوص النبوية التي رويت عن رسول الله ﷺ ويبدو فيها تأكيده على الرفق بالعجماوات، ما رواه أبو داود في سننه عن سهل بن الحنظلية أنه قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ ارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً».(٢)

تتجلى رحمة الرسول ﷺ في هذا النموذج في التجاوب الشعوري الفعَّال الذي لا يكتفي فقط بإظهار الأسى وإنما يتخطى ذلك إلى التجاوب الحي بإزالة أسباب الضرر عن هذا الحيوان الأعجمي، بدا ذلك في ثلاثة أوامر صدرت تصحيحًا للخطأ وإزالة للضرر.

وتبدو فلسفة الرحمة مع دفع الضرر عن الحيوان في الحفاظ على هذه النعمة التي تمثل وسيلة نقل وطعام لا يستغنى عنها.

ومنها -أيضًا- ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَحِمَ، وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».(٣)

= ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ المنعقد بالرياض ٢٣-٢٥ شوال ١٤٣١هـ- ٢-٤ أكتوبر ٢٠١٠م/المجلد الرابع/ص ٢٠٥٩.

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/باب: فضل الرفق/حديث رقم (٢٥٩٢)

(٢) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه/كتاب الجهاد/باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم/حديث رقم (٢٥٤٨) قال الألباني: (صحيح) ورواه ابن خزيمة في صحيحه/باب: استحسان الإحسان إلى الدواب/حديث رقم (٢٥٤٥)/ج ٤/١٤٣. وقد توسع الشيخ الألباني في تخريجه في السلسلة الصحيحة/حديث رقم (٢٣)/ج ١/٦٢ وما بعدها.

(٣) حديث حسن، رواه البخاري في الأدب المفرد/حديث رقم (٣٨١)/ص١٣٨/قال الألباني: حسن. =

وهنا تتجلى الرحمة العظيمة على صاحب الإحساس الأعجم من الطير دون النظر إلى منفعة خاصة بالإنسان وإنما رحمة مبعثها تعاطي القلب المؤمن مع كائن ضعيف، كما أنه لم ينظر إلى حجمه، فرحمته بالعصفور الصغير كرحمته بالجمل مبعثها التماس رضا الله والتقرب إليه برحمة هذا الكائن، ويستوي في منظار الإخلاص التقرب برحمة البعير مع التقرب برحمة نمل صغير.

ومنها ما رواه البخاري في الأدب المفرد -أيضًا- ورواه مسلم في صحيحه أنَّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كنت على بعير فيه صعوبة، فجعلت أضربه، فقال النبي ﷺ: عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ».(١)

تتجلى فلسفة الرحمة النبوية في هذا الحديث في دفع الأذى عن الحيوان مع التوجيه إلى سياسة هذا الحيوان الذي لا يعقل مع تقرير خُلق الرفق وتعميمه؛ ليشمل أمرًا ينشغل به الإنسان.

٢. الإحسان إلى العجماوات يوجب المغفرة:

جاء في غير موضع من السنة النبوية أنَّ الإحسان إلى العجماوات جزاؤه المغفرة، ومن ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَما رَجُلٌ بطَريق، اشْتَدَّ عَلَيْه العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فيهَا، فَشَربَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى منَ العَطَش، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئْرَ

= ورواه الطبراني في معجمه الكبير من حديث الوليد بن جميل الدمشقي/حديث رقم (٧٩١٥)/ج ٢٣٤/٨، ورواه البيهقي في شعب الإيمان/باب: في رحم الصغير وتوقير الكبير/حديث رقم (١٠٥٥٩).

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب الأدب/باب: فضل الرفق/حديث رقم (٢٥٩٤). والبخاري في الأدب المفرد/باب الرفق/حديث رقم (٤٦٩)/ص١٦٦، واللفظ له/تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي/ط. الثالثة/دار البشائر الإسلامية- بيروت/سنة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م. قال الشيخ الألباني: «صحيح».

فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».(١)

تتجلى رحمة النبي ﷺ في أنه يغرس فينا الشعور بما حولنا من الكائنات، فنستشعر حاجتها لما لا تستطيع التعبير عنه، ونتخذ السبل لتحقيقها بما نستطيع، ومن عبقريته ﷺ أنه استخدم مثالاً لشخص عادي يصلح أن يكون أي واحد منا، فهو ليس بملك ولا نبي، كما أنه لم يأت بعمل بطولي يصعب عن غيره وإنما هو تصرُّف إنساني مبعثه شعور وإخلاص وتجاوب فعَّال تجاه كلب اشتد به العطش.

ومن رحمته في هذا الحديث دعوته المستفادة من القصة إلى سلوك كل سبيل يمكن أن يخلص العبد من ذنوب قد تتسبب له في عذاب طويل بأبسط الوسائل وأيسر الأعمال.

٣. الرحمة في التخلص من الكائنات الضارة:

وتبدو رحمته ﷺ في توجيهاته عند قتل الكائنات الضارة، ويكون ذلك لتغليب مصلحة الإنسان رحمة به من الأذى، وفي ذات الوقت رحمة بهذه الكائنات بألا تُعذَّب عند التخلص منها وقتلها قتلًا فيه رحمة بها.. ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ وَزَغًا فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ، وَفِي الثَّالِثَةِ دُونَ ذَلِكَ».(٢)

جاء في شرح صحيح مسلم للنووي أنَّ: "الوزغ من الحشرات المؤذيات.. وأمر النبي ﷺ بقتله وحث عليه ورغَّب فيه؛ لكونه من المؤذيات، وأمَّا سبب

(١) رواه البخاري في صحيحه/كتاب الأدب/باب: رحمة الناس والبهائم/حديث رقم (٦٠٠٩)، ومسلم في صحيحه/كتاب السلام/باب: فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها/حديث رقم (٢٢٤٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه/كتاب السلام/باب: استحباب قتل الوزغ/حديث رقم (٢٢٤٠). والوزغ: هو البرص واحدته وزغة.

تكثير الثواب في قتله بأول ضربة ثم ما يليها، فالمقصود به الحث على المبادرة بقتله، والاعتناء به، وتحريض قاتله على أن يقتله بأول ضربة"[1].

فقد منع الضرر عن الإنسان بالحث على قتل الوزغ رحمة بالإنسان، ورحم الوزغ بالحث على قتله من أول ضربة وفي هذا تقليل لفترة الألم التي يشعر بها عند الموت، وجعل الأجر الأقل للضربة الثانية، وكذا في التحفيز على الضربة الثانية والثالثة رحمة بهذا الكائن حتى لا يترك بعد الضربة الأولى للموت البطيء يتعذب بل يجهز عليه بأسرع ما يمكن وبذلك يجنبه لحظات الألم.

جاء في مقال للكاتب الفلسطيني بكر أبوبكر أنَّ الوزغ حيوان سام أبرص يأتي في البيوت يبيض ويفرخ ويؤذي الناس أمر النبي ﷺ بقتله.

ويتم التخلص منه كغيره فقط؛لأنه كائن ضار بالإنسان مثل العقرب والثعبان والنمل الأبيض الذي يأكل البيوت الخشبية مثلًا والذباب والبعوض، أو السحلية التي تعيش في الشقوق وقد توسعها ما قد يهدد المنزل، والفئران لنقلها القاذورات، بل إن قتل الكلب ضروري عندما يصبح ضارًا بالإنسان والحيوان، أي: عندما يصبح سعران.

إذن هدف ما قاله الرسول يتمثل (بالتخلص من الضار) من الكائنات، وهو صادق قطعًا دينيًا وعلميًا وإنسانيًا بالتخلص من الحشرات والحيوانات الضارة (بالإنسان في مكان إقامته).

أما عن حيوان الوزغ تحديدًا -وهو حيوان زاحف شبيه بالسحلية- فضرورة التخلص منه كما حال التخلص من الفئران مثلًا ما هو واضح علميًا وصحيًا بالإنسان كما في موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة حيث نقرأ عن الوزغ التالي:

(١) النووي/المنهاج/شرح صحيح مسلم بن الحجاج/جـ١٤/٢٣٦ -٢٣٧.

بعض الأمراض التي لها علاقه بالأوزاغ

أولًا: الأمراض البكتيرية Bacterial diseases:

تحمل الأوزاغ بكتيريا السالمونيلا Salmonella، حيث إنها لا تتأثر بها ولكنها تنقلها إلى العوائل الأخرى.

ثانيًا: الأمراض المعوية: Gastrointestinal diseases:

- تحتوى الأوزاغ العديد من الطفيليات الممرضة، وأكثر هذه الطفيليات شيوعًا هو طفيل الكريبتوسبوريديم Cryptosporidium، وعندما تأتي هذه الطفيليات إلى الأوزاغ تظهر عليها بعض الأعراض مثل: كثرة الترجيع أو التقيؤ لا إراديًا، سيولة البراز، لطخات من البراز حول المكان المحيط به، فقدان الشهية، وغير ذلك من الأعراض.
- أيضًا يأتي إليها الديدان الدبوسية Entrobius vermicularis، حيث تشاهد بيوض هذه الديدان في البراز، ومن المعروف أن الدودة الدبوسية معدية، ولذلك من السهل أن تنتقل من الأوزاغ إلى غيرها من العوائل.

ثالثًا: الأمراض التنفسية: Respiratory diseases

تأتي أمراض الجهاز التنفسي من أشياء عديدة، منها نوع من أنواع الطفيليات يسمى البنتاستوميدا Pentastomida، والمعروفة بعد تطورها بالديدان اللسانية، والتى تصيب الجهاز التنفسي للأوزاغ، وذلك بتآكل الأنسجة الداخلية للجهاز التنفسي، والبطانات الداخلية للجيوب الأنفية.

ومن أكثر الأعراض التي تظهر أحيانًا على الأوزاغ هي، فقدان الوزن والشهيه، الانتفاخ والتورم، كثرة المخاط فى الأنف والفم، التنفس بصعوبة،

البراز غير طبيعي، شلل في الأطراف والذيل، التنفس بعناء شديد، ازدراء العينين، مائل للنوم أو ما يعرف بالوسن العقلي Lethargy.

لقد حذرنا النبي ﷺ منذ مئات السنين -كما تضيف الموسوعة- من هذه الأوزاغ وأن نبتعد عنها أو نقتلها (خيار واضح أن نتركها إن لم تضرنا أو نتخلص منها إن اضرت) عندما نراها، لأنها ممكن أن تسبب ضررًا لمن يتعامل معها، وتصيبهم بالأمراض الخطيرة، وهذا ما حدث بالفعل، فلقد أثبتت التجارب ذلك، لقد تضرر من هذه الأوزاغ الكثير من الأشخاص مختلف بلدان العالم، حيث توالت النداءات من مختلف الهيئات البيئية والصحية بالحذر من تلك الأوزاغ أيًا كان نوعها.

الخلاصة الواضحة لدينا هنا هي أن التخلص من الحيوانات أو الزواحف أو الحشرات عامة، ومنها الوزغ متى ما أضرت الإنسان شخصًا أو مسكنًا ضروري، وليس ما يضيفه الكثير من العامة من أساطير تحيط بهذا الكائن دون غيره، فلا نظن إطلاقاً أن هذا مقصد الرسول الذي هو نبي الرحمة لكل الكائنات، وفي ذات الوقت يطلب من الإنسان الدفاع عن نفسه وعدم إيقاع الضرر بها أو بأسرته.

وعليه من المهم أن يُفهم على سبيل المثال هنا أن قتل الحيوانات عامة ومنها المفترسة أو الحشرات أو غيرها في مكان سكناها في الغابة مثلًا لا يدخل في المعنى -ما دامت بعيدة ولا تضر الإنسان- بل يجب الحفاظ عليها للحفاظ على التنوع البيئي.[1]

٤. الرحمة بالعجماوات حال ذبحها:

من صور الرحمة النبوية بالعجماوات الإحسان إلى البهيمة حال ذبحها،

(١) http://www. bakerabubaker. info/index. php?action=show&pageID=1210

وقد أثنى على من فعل ذلك، ونهى ﷺ أن ترى أختها وهي تذبح، أو تُحد آلة الذبح أمامها.

روى مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[1]، قال ابن أبي جمرة: "فيه رحمة الله لعباده حتى في حال القتل، فأمر بالقتل وأمر بالرفق فيه، ويؤخذ منه قهره لجميع عباده؛ لأنه لم يترك لأحد التصرف في شيء إلا وقد حدَّ له فيه كيفية"[2].

ففي الحديث صورة من أعظم صور الإحساس بالحيوان في رعاية إحساسه وشعوره ودلالة على الرقي الفكري، وهذا بخلاف ما يفعله النباتيون الذين يرفضون ذبح الحيوان لأكله بحجة الرحمة به، وهذه فلسفة تخالف نواميس الكون تُهدر قيمة، الحيوان ولا يجد الإنسان فائدة من تربيته، وبدلًا من رعايته سيحرص على الخلاص منه وينقرض، والمنهج النبوي في الرحمة ينسجم مع نواميس الكون.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنهما أَنَّ رجلًا قال: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ وَأَنَا أَرْحَمُهَا قَالَ: الشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ»[3].

يبدو في هذا النص النبوي حرص الرسول ﷺ على تقرير رحمة الله لعباده برحمتهم لهذه العجماوات حية وعند ذبحها والإجهاز عليها، واستخدم في ذلك أسلوب الشرط؛ لترسيخ القضية في النفوس.

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان/باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة/حديث رقم (١٩٥٥)
(٢) ابن حجر العسقلاني/فتح الباري شرح صحيح البخاري. جـ٩/٦٤٤.
(٣) حديث صحيح رواه أحمد في مسنده/من حديث معاوية بن قرة/حديث رقم (١٥٥٩٢) ورواه البخاري في الأدب المفرد/حديث رقم (٣٧٣)/ص ١٣٦ قال الشيخ الألباني: «صحيح».

من خلال هذه النصوص النبوية يمكننا الرد على هؤلاء النباتيين الذين يرفضون ذبح الحيوانات وأكلها رحمة بها، فهم غير رحماء بالحيوان كما يدَّعون؛ إذ إنَّ الرحمة تقتضي المصلحة المتبادلة بين الإنسان والحيوان، فلحوم الحيوانات المذبوحة ذبحًا شرعيًا فيها من الفوائد والعناصر الغذائية اللازمة لبناء جسم الإنسان ما لا يحققه الاعتماد على النباتات في الغذاء بشكل مطلق.

كما أنها تدلل على أسبقية الإسلام والرحمة النبوية لجميع المنظمات الحديثة التي أخذت على عاتقها رعاية الحيوان، وحمايته، ورحمته وحفظ حقوقه. كما تبدو فلسفة الرحمة النبوية بالعجماوات في أنها طريق موصل للإنسان إلى تمثُّل خلق الرحمة في حياته، فمن يتربى على رحمة العجماوات الضعيفة ويحفظ حقوقها رحمة بها يمكنه الوصول إلى الرحمة العامة التي هي مناط الإيمان، ومن ثمَّ يتحقق التراحم والترابط بين المسلمين جميعهم كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1].

المطلب الثاني
النهي عن إيذاء العجماوات والقسوة عليها

جاء النهي في السنة النبوية عن القسوة والتعذيب والإضرار بخلق الله جميعاً؛ ولاسيما العجماوات؛ فإن الله ﷻ قد حباها نعمة الإحساس والتضجر والشعور بالألم ولكنها لا تستطيع بيان ما في نفسها، فكان من

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب: البر والصلة والآداب/باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم/ حديث رقم (٢٥٨٦).

مقتضى الرحمة النبوية التي حملها الرسول ﷺ للعالمين أن خصها ﷺ بمزيد من العناية التي ترحم ضعفها وتَجبُر كسرها وعجزها عن البوح بما تشعر به من ضرر. ومن ثمَّ رأينا السنة النبوية زاخرة بالنصوص التي تنهى عن إيذاء تلك العجماوات والقسوة عليها والإضرار بها.

١- النهى عن تعذيب العجماوات:

روى الشيخان في صحيحيهما عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»(١).

فإنَّ المتأمل لهذا النص النبوي يدرك عظمة الدين، ومقدار الرحمة عندما يتكلم عظيم بقدر النبي ﷺ في شأن هرة، ثم يضع هذا الجزاء القاسي لمن عذبها، وهو دليل على قيمة الروح ورعاية لصاحب الإحساس مهما كان، وهو دليل على سمو الإسلام وعمق الشعور النبوي الذي وسع كل الكائنات التي أدركها.

قال الإمام النووي معلقًا على هذا الحديث: "وفي الحديث دليل لتحريم قتل الهرة، وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب. وأما دخولها النار بسببها فظاهر الحديث أنها كانت مسلمة، وإنما دخلت النار بسبب الهرة"(٢).

٢- النهى عن اتخاذ العجماوات غرضًا للرمي:

من الأمور التي نهى رسول الله ﷺ عنها رحمة بالعجماوات اتخاذها

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه/كتاب: أحاديث الأنبياء/باب حديث الغار/حديث رقم (٣٤٨٢)، ومسلم في صحيحه/كتاب السلام/باب: تحريم قتل الهرة/حديث رقم (٢٢٤٢).
وخشاش الأرض: بفتح الخاء المعجمة وكسرها وضمها هي هوام الأرض وحشراتها.

(٢) النووي/المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ط. الثانية/دار إحياء التراث العربي- بيروت ١٣٩٢هـ جـ١٤/ ٢٤٠

غرضًا لتعليم الرمي، روى مسلم في صحيحه عن سعيد بن جبير ﷺ قال: "مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا، وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا لَعَنَ اللَّهُ، مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا"[1].

فحجم العقوبة التي رصدها الرسول ﷺ لمن يجعل الحيوان غرضًا يكشف مدى رحمته ﷺ وإحساسه بهذه الكائنات التي تتألم ألمًا نفسيًا، بكونها في هذا الموقف الذي تشعر فيها بقرب الخطر ولا تملك دفعًا ولا هروبًا.

قال النووي: "لعن الله من فعل هذا؛ لأنه تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه وتضييع لماليته، وتفويت لذكاته إن كان مُذَكًّى ولمنفعته إن لم يكن مُذَكًّى"[2].

٣- النهى عن المثلة بالعجماوات:

من صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية حرص الرسول ﷺ على عدم تشويه العجماوات أو تعذيبها بالوسم أو الكي أو قطع جزء من أطرافها، ومن شواهد ذلك في السنة النبوية، ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر ﷺ أنَّ النبي ﷺ لعن من مَثَّل بالحيوان»[3].

وما رواه مسلم في صحيحه عن جابر ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ»[4].

(١) رواه مسلم في صحيحه/كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان/باب: النهي عن صبر البهائم وهو حبسها لتقتل/حديث رقم (١٩٥٨)

(٢) النووي/المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/جـ١٣/١٠٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه/كتاب الذبائح والصيد/باب: ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة/حديث رقم (٥٥١٥).

(٤) رواه مسلم في صحيحه/كتاب اللباس والزينة/باب: النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه/حديث رقم (٢١١٧).

وتعد الإساءة للعجماوات سببًا للمساءلة والقصاص يوم القيامة، فعن عبدالله بن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَثَّلَ بِذِي رُوحٍ، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مَثَّلَ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

٤- النهى عن لعن العجماوات:

ومن عجائب الرحمة النبوية بالعجماوات في السنة النبوية تحريم لعن العجماوات كما ورد في صحيح مسلم عن عمران بن حُصين قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» قَالَ عِمْرَانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ، مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ»(٢).

وفي رواية أخرى: « لا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ»(٣).

قال النووي: "إنما قال هذا زجرًا لها ولغيرها، وكان قد سبق نهيها ونهي غيرها عن اللعن فعوقبت بإرسال الناقة، والمراد النهي عن مصاحبته لتلك الناقة في الطريق، وأما بيعها وذبحها وركوبها في غير مصاحبته ﷺ وغير ذلك من التصرفات التي كانت جائزة قبل هذا فهي باقية على الجواز؛ لأن الشرع إنما ورد بالنهي عن المصاحبة فبقي الباقي كما كان"(٤).

مما سبق يتضح لنا أن اللعن ليس من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله ﷻ بالرحمة فيما بينهم والتعاون على البر والتقوى، واللعنة تعني الإبعاد عن رحمة الله، فلكي تتحقق الرحمة بين الناس لابد أن يتدربوا

(١) رواه احمد في مسنده/باب: مسند عبدالله بن عمر ﷺ حديث رقم (٥٦٦١). حديث صحيح.
(٢) رواه مسلم في صحيحه/كتاب البر والصلة والآداب/باب: النهي عن لعن الدواب وغيرها/حديث رقم (٢٥٩٥).
(٣) المصدر السابق/حديث رقم (٢٥٩٦)
(٤) النووي/المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/جـ١٦/١٤٧-١٤٨.

عليها في رحمة العجماوات من حولهم، فالرحمة في حب الخير لها، وعدم لعنها طريق لترسيخ الرحمة في نفوس البشر.

المطلب الثالث
مواقف عملية للرحمة بالعجماوات في السنة النبوية

بلغت الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية منزلة رفيعة، تجلت في مواقف عملية تطبيقية حدثت بين الرسول ﷺ وأصحابه، وبدا فيها واضحًا جليًا حرصه ﷺ على مصلحة العجماوات ورحمتها والرفق بها.

ونقدم فيما يلي بعضًا من النماذج التي تجسدت فيها الرحمة النبوية بالعجماوات في أسمى معانيها.

١. من رحمته ﷺ بالحشرات:

روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ رأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلا رب النار»[(١)].

نلمس في هذا التصرف النبوي أنَّ السنة النبوية بلغت بالمشاعر الإنسانية أعلى مراقيها التي يمكن أن يصل إليها البشر قبل وجود جمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا هذا، وحتى تلك الجمعيات لم تصل إلى المستوى الراقي الذي وصل إليه التشريع الإسلامي، وتمثل عمليًا في السلوك النبوي، فإنه بلغ برحمته حتى الحشرات التي ينظر إليها هؤلاء باشمئزاز وكراهية، فإن

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه/كتاب: الجهاد/باب: في كراهية حرق العدو بالنار/حديث رقم (٢٦٧٥) قال الألباني: صحيح

النبي ﷺ قد رحمها ونهى عن تعذيبها بالنار لما فيه من ألم شديد يصاحب قتلها. هو منتهى ما يصل إليه بشر بإحساسه بأصغر الكائنات.

٢. مراعاة النبي ﷺ لعاطفة الأمومة في العجماوات:

وبلغ من رحمته ﷺ بالعجماوات أنه كان يراعي فيها عاطفة الأمومة وينهى عن التفريق بين الأم وولدها.

روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»[(١)].

ففي هذا الموقف ندرك منتهى الرقي الإنساني في التعاطي مع شعور أم لطائر ضعيف فقدت صغيريها، أي بشر يرقى إلى هذا السمو الأخلاقي في الإحساس بفجيعة طائر فقد صغيريه؟!

فلم تصل منظمة إنسانية -رغم تقدم العالم- إلى هذا المستوى الذي يراعي إحساس العجماوات ويتفاعل معه ويدفع عنه سبب الفجيعة.

وأظن أنَّ النبي ﷺ كان يدرك تمام الإدراك أنَّ الرحمة بالعجماوات طريق ممهد للرحمة بين البشر، فاتخذ من هذا الموقف نموذجًا لتربية وجدان المسلم نحو رحمة هذا الطائر الضعيف؛ وصولًا إلى تعميق خلق الرحمة في نفوس البشر.

٣. النبي ﷺ يرسي منهجًا للتعامل مع ما يبدو نافرًا من العجماوات:

ومن عجائب الرحمة النبوية في السنة النبوية، ما رواه الإمام أحمد في

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في سننه/كتاب: الجهاد/باب: في كراهية حرق العدو بالنار/حديث رقم (٢٦٧٥). وكتاب: أبواب النوم/باب: في قتل الذر/حديث رقم (٥٢٦٨)

مسنده، أنَّ جملًا قد استصعب على أصحابه واستعصى عليهم، فأعاده الرسول ﷺ بالرفق واللين إلى حاله الأولى.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنِي عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطِشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا» فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَتِهِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ، فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ». فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَتْ قَطُّ، حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ. فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ: «لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا»[1].

تأمل معي -رعاك الله- كيف أن القسوة كانت سببًا في ثورة الجمل واستعصائه على أصحابه، حتى أنهم رأوا بأعينهم عاقبة قسوتهم على هذا الأعجمي.

فجاء الرسول ﷺ ودنا إليه بالرفق واللين، فسكن الجمل واستراح، وخمدت ثورته. وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على أن العجماوات مخلوقات لها مشاعر وأحاسيس، وهذا الموقف يؤكد أن الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية قد سبقت كل جمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا، وهي رحمة قائمة على مراعاة الجانب الوجداني لهذه العجماوات

(١) حديث حسن لغيره رواه أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك ﷺ/حديث رقم (١٢٦١٤) قال الشيخ شعيب: «حديث حسن لغيره».

باعتبار أنها مخلوقات تخدم الإنسان في تحقيق مهمته الأساسية المتمثلة في عمارة الكون.

وروى أبو داود في سننه أنَّ النبي ﷺ قد دخل بستانًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى الجمل النبي ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح عليه حتى سكن، فقال: لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنَّه شكا لي أنك تجيعه وتُدْئِبُهُ[1]»[2].

وتتجلى في هذا الحديث دلائل النبوة واضحة في كون الجمل قد شكا إليه، والرسول ﷺ قد سمع منه هذه الشكوى وفهمها منه، وهدأ من روعه.

كما أرشد الرسول ﷺ إلى ضرورة الإحسان إلى العجماوات، وأنَّ من واجب الإنسان الذي ملَّكه الله إياها، أن يعطيها حقها من الغذاء والطعام، وألا يكلفها ما لا تطيق من الأعمال.

٤. سقيه ﷺ الماء للعجماوات:

لم تكن رحمته ﷺ بالعجماوات كلامًا نظريًا بحتًا، وإنما كانت تطبيقًا عمليًا يثبت -بلا شك- أنَّه رحمة للعالمين. ومن هذا ما رواه الدارقطني في سننه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ يُصْغِي إِلَى الْهِرَّةِ الْإِنَاءَ حَتَّى تَشْرَبَ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ بِفَضْلِهَا"[3].

---

(١) تُدْئِبُهُ: تتعبه.

(٢) رواه أبو داود في سننه/كتاب: الجهاد/باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم/حديث رقم (٢٥٤٩) قال الألباني: «صحيح».

(٣) رواه الدار قطني في سننه/كتاب: الطهارة/باب: سؤر الهرة/حديث رقم (٢١٨)/جـ١/١١٧/ تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون/ط. الأولى/مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان سنة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم (٤٩٥٨).

تأمل معي -رعاك الله- رحمته ﷺ بهذه الهرة الضعيفة في تأخيره ﷺ للوضوء وتقديم مصلحة هذا المخلوق الضعيف على لون من ألوان العبادة، فأين من يتشدقون برعاية حقوق الحيوان -وهم كاذبون في ذلك- من هذه الرحمة النبوية ؟! لا سيما في تلك البيئة التي كانت وعرة قاحلة، وكان الحصول على الماء فيها يمثل مشقة كبرى لسقي البشر فضلًا عن الحيوان والنبات.

كل هذه المشاهد والتطبيقات العملية وغيرها مما لم يتسع المجال لذكره في سُنة الرسول ﷺ تدلل على أن الإسلام يطمح إلى إنشاء مجتمعات راقية في سلوكها وأخلاقها، ترفرف الرحمة عليها؛ لينعم الجميع بالحب والتآلف.

الخاتمة

وبعد، فهذه خلاصة رأيت أنها تكفي عن الإطالة وتناسب هذه العجالة، طفت من خلالها في موضوع (الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية)، ولقد خرجت من كتابته بعدة نتائج؛ منها:

١. أنَّ الرحمة النبوية قرب واصطفاء، وخلق فطري جُبل عليه الرسول ﷺ؛ تأليفًا للقلوب، وترسيخًا للقيم الإسلامية الرفيعة. ولم تقتصر الرحمة على الإنسان دون غيره من سائر المخلوقات بل تعدته إلى مخلوقات أخرى تأتي في مقدمتها العجماوات.

٢. أنَّ العجماوات أمم، لها خصائصها وسماتها، والإسلام لا ينظر إليها نظرة دونية، وإنما يُعلي من قيمتها ويرفع قدرها، فهي أمم خُلقت لتسبيح الله وعبادته، وجُبلت -طاعة لله تعالى- على تحقيق منفعة دنيوية للإنسان، ومن ثمَّ وجب على الإنسان رحمتها والرفق بها في جميع أحوالها.

٣. أنَّ الإسلام قد خط منهجًا وسطًا في معاملة العجماوات تقوم فلسفته على عدم المغالاة في تقدير العجماوات، ورفعها فوق قدرها الطبيعي، وكذلك عدم إيذائها وتعذيبها وتحميلها فوق طاقتها.

٤. للرحمة بالعجماوات في السنة النبوية حكم عظيمة يمكن تلمسها بشكل عملي تطبيقي من خلال استقصاء دلائل الرحمة في سيرة الرسول ﷺ بالعجماوات لم تكن كلامًا نظريًا بل كانت تطبيقًا عمليًا ومنهج حياة، وقد فصلنا القول في ذلك بين ثنايا البحث.

٥. تتعدد صور الرحمة بالعجماوات في السنة النبوية وتتنوع ما بين الأمر بالرفق بهذه العجماوات والإحسان إليها، وبين النهي عن تعذيبها والقسوة عليها، ولم تكن هذه الصور خطبًا وشعارات بل بدت في مواقف تطبيقية عملية في سيرته ﷺ

٦. وأخيرًا فقد رصد البحث سبق الرسول ﷺ لجمعيات الرفق بالحيوان في عصرنا، في رحمة العجماوات والرفق بها ومراعاة حقوقها.

هذا ويوصي البحث بما يلي:

١. ضرورة إصدار دراسات أخرى متعمقة في بيان رحمة الرسول ﷺ بالعجماوات، تقوم على استقصاء النصوص النبوية وتبويبها بشكل موضوعي، وتبين ما تتضمنه من آداب، وما يمكن أن يُؤخذ منها من أحكام شرعية.

٢. تكوين هيئة علمية متخصصة في تقديم دراسات تُعنَى بدراسة الرحمة بالعجماوات في ظل الإسلام، وتضع على قمة أولوياتها ترجمة النصوص النبوية إلى لغات العالم؛ لاستثمارها في الدعوة الإسلامية وتصويب المفاهيم المغلوطة عن الإسلام.

٣. نشر الثقافة الإسلامية في الرحمة بالعجماوات عن طريق كافة الوسائل الإعلامية المتاحة من إذاعة، وتليفزيون، وفضائيات،

وإنترنت. كما ينبغي تضمين المناهج التعليمية توجيهات الرسول ﷺ وإبراز هذا الجانب من سيرته ﷺ. وختامًا ابتهل إلى الله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يُضيء به جانبًا من جوانب السنة النبوية الشريفة، وينفع به كاتبه وقارئه. وصلى اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ.

قائمة المصادر والمراجع

١. الأدب المفرد، البخاري (محمد بن إسماعيل ت٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط. الثالثة، دار البشائر الإسلامية، بيروت سنة ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية (أبو عبدالله محمد ابن أبي بكر أيوب الزرعي الدمشقي ت٧٥١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط. دار الفكر، بيروت -لبنان.
٣. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، سنة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
٤. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ط. دار سحنون، تونس.
٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، ط. الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، سنة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٦. سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني(ت٢٧٥هـ)، ترقيم: محيي الدين عبدالحميد، ط. الدار المصرية اللبنانية، سنة ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
٧. سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط. الأولى، مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان، سنة ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٨. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت٢٧٩هـ، ترقيم: أحمد شاكر، ط. دار الكتب العلمية- بيروت.
٩. سنن الدارمي، أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام ابن عبدالصمد الدارمي (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، ط. الأولى، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.
١٠. الشريعة، أبوبكر محمد بن الحسين بن عبدالله الآجري (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: د. عبدالله بن عمر بن سليمان، ط. الثانية، دار الوطن، الرياض - السعودية، سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١١. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي أبوبكر (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: د. عبدالعلي عبدالحميد حامد، ط. الأولى، مكتبة الرشد بالرياض، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت٥٤٤هـ)، ط. الثانية، دار الفيحاء، عمَّان، سنة ١٤٠٧هـ.
١٣. صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري (ت ٣١١هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط. المكتب الإسلامي - بيروت/لبنان.
١٤. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله ت٢٥٦هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ط. الأولى، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)، ١٤٢٢هـ.
١٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط. الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٢هـ

١٦. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ت٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (أحمد ابن علي ت٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت -لبنان، سنة ١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م.
١٨. لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم ت، ط. دار المعارف، القاهرة.
١٩. المستدرك على الصحيحين، الحاكم (أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.
٢٠. مسند الإمام أحمد، (أحمد بن حنبل ت٢٤١هـ)، ط. مؤسسة التاريخ العربي- دار إحياء التراث العربي، سنة ١٩٩١م.
٢١. مصنف ابن أبي شيبة (الكتاب المصنف في الحديث والآثار)، أبوبكر ابن أبي شيبة عبدالله بن محمد بن إبراهيم (ت ٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط. الأولى مكتبة الرشد بالرياض، سنة ١٤٠٩هـ.
٢٢. معالم الرحمة بالحيوان في شريعة نبي الرحمة محمد ﷺ بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر نبي الرحمة محمد ﷺ المنعقد بالرياض ٢٣ -٢٥ شوال ١٤٣١هـ-٢ -٤ أكتوبر ٢٠١٠م، المجلد الرابع.
٢٣. معجم العين، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، ط. دار ومكتبة الهلال.
٢٤. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي

أبو القاسم الطبراني (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، ط. الثانية، مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

٢٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط. مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢٦. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت– لبنان، سنة ١٣٩٢هـ– ١٩٧٢م.

المقالات:

١. الحيوان، مقال طويل للدكتور راغب السرجاني، بتاريخ ٢٠٠٦/٥/١م على موقع قصة الإسلام الإلكتروني http://islamstory. com/ar

٢. الوزغ وجواز التخلص من الحيوانات الضارة بالإنسان، مقال للأستاذ بكر أبوبكر على موقعه الإلكتروني

٣. http://goo.gl/AxbZGR